

من رسائل الشيخ شامل

« على هامش الثقافة العربية في الاتحاد السوفيتي »

للأستاذ برهان الدين الداغستاني

—>>><<<—

في شهر يونيو من سنة ١٩٤٣ أذاع الأستاذ أغناطيوس كراتشكوفسكي محاضرة عن الثقافة العربية في الاتحاد السوفيتي جاء فيها ما يأتي : « ولا يزال بعض سكان داغستان يتكلمون بلغة عربية قديمة إلى جانب لغتهم الأصلية ، ويستخدمون في التخاطب والكتابة ، وحتى في نظم الشعر وفق الأوزان العربية القديمة الخ » .

ونشرت خلاصة تلك المحاضرة في بعض الصحف المصرية يومئذ ، فقام أحد كبار الكتاب المنين بالشئون القوقازية ، وكتب مقالا في إحدى الصحف اليومية الكبيرة حاول فيه التشكيك فيما قاله المحاضر عن ذبوع اللغة العربية في بعض جهات الداغستان ، وكتبت في ذلك الحين مقالا طويلا شرحت فيه مكان اللغة العربية في القوقاز وبينت أنها عماد الثقافة الدائمة في الداغستان من أمد بعيد . وقد تفضلت الرسالة القراء فنشرت ذلك المقال في العدد الأول من سننها الثانية عشرة (يناير سنة ١٩٤٤) .

هذه كلمة وجيزة أردت بها التمهيد قبل نشر بعض الرسائل التي عثرت عليها مما كتبه الشيخ شامل نفسه في شئون مختلفة بلغة عربية سليمة ، فيها سلاسة العبارة ، ووضوح الفكرة .

وهي أربع رسائل عثرت عليها اتفاقا عند أحد شيوخ الداغستانيين في حمص — سورية — في الصيف الماضي (١) .

وهذه الرسائل تفيدنا أن شاملا كان يدعو نفسه — كما كان يدعو أصحابه وأتباعه في القوقاز — أمير المؤمنين .

كما نعرف منها أن اسمه المعروف به هناك هو « شمويل » وإن اشتهر في خارج بلاد القوقاز باسم الشيخ شامل .

وهذه هي الرسائل :

(١) هو الحاج محمد الأتروشي الداغستاني في يوم الجمعة ١١/٧/١٤١٧ م

— ١ —

من أمير المؤمنين شمويل إلى والده الأعز جمال الدين وإلى أخويه الكريمين الحاج علي المسكري والقاضي حجيو وإلى أهل بيته ، وإلى كافة جماعة القريتين .

سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته .

أما بعد . فلقد وقع بيننا وبين الكفار وقائع وحروب بحيث لم يقع مثلهما إلى الآن في ديار « جيجان » (١) ، بل في ديار داغستان . يوم الأحد والاثنيث ، بالدافع الكبار والسمار والسيوف الصوارم ، ونصرنا الله تعالى وأيدنا تأييد النبي المختار محمد صلى الله تعالى عليه وسلم ، وخذل أولئك الملاحين أينما توجهوا ، ورجعوا من أمام باب شبيب إلى قلعة « أي سُنْدُقُر » مقهورين منهزمين بحيث لا يرجعون إلى ديارنا بعد ، فحمدنا الله تعالى وشكرونا على أياديه العظام ، وإعانتة لنا . وهذا بشرى لكم أيها الكرام ، ولعل هذا التأييد بسبب بركات دعواتكم ، وخشوعكم وتضرعكم . ونحن نرجع إلى الأوطان بلا طول فصل ، إن شاء الله تعالى . والباقي يخبركم الحامل بالتفصيل التام . هذا . والسلام .

— ٢ —

من الكاتب الفقير شمويل إلى إخوانه الكرام قاضي وعلماء وجميع جماعة « بن » (٢) :

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ، وصانكم الله تعالى من كل آفة . ما ظهر منها وما بطن آمين . أما بعد .

فاعلموا — يا إخواني — إنني تركت أخذ مكافلكم للرهن ثقة بكم أن لا تخونوا دين الله تعالى ورجاء أن يكون ذلكم الترك سببا لروال السكندورة من بينكم ، وزيادة الألفة والمحبة فيكم ، فلا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا ، ولا يقصد بضمكم ضر بعض ، ولا تكونوا جواسيس « أنصال » (٣) لإبصال المضرة إلى بعضكم ، وكونوا عباد الله إخوانا .

(١) مقاطعة في شمالي الداغستان كانت ميدان معارك كثيرة بين

شامل وبين الروس

(٢) اسم قرية

(٣) اسم أحد الخارجين على الشيخ شامل التماوين مع الروس .

خسة أعوام ، فقد اضطر إلى التسليم في صفر سنة ست وسبعين ومائتين وألف .

والشيخ شامل كان لا يعرف اللغة الروسية مع أنه عاش في بلاد كان نفوذ الروس فيها عامكاً شاملاً في كثير من الأوقات ، بل كان لا يعرف إلى جانب لغته الأصلية إلا اللغة العربية التي كان يحسنها إحساناً . فقد ذكر الفيكونت فيليب دي طرازى في تاريخ الصحافة . (ج ٢ ص ١٧٣) عند كلامه عن سليم دي نوفل واستدعائه سنة ١٨٦١ م لتدريس اللغة العربية في جامعة بترسبورغ — ما يأتي . « واتفق أن شاملاً المشهور الذي حارب روسيا مدة ٣٢ سنة خضع وسلم لها في ذلك الزمن ، وكان لا يحسن اللغة الروسية ، بل العربية ، فكان سليم ترجأنا بينه وبين القيصر اسكندر الثاني » .

وعلى ذكر القيصر اسكندر الثاني أقول : ذكر الفريق محمد فاضل باشا الداغستاني الذي كان أسيراً لدى الروسين مع الشيخ شامل — هذه الحادثة : كان الشيخ شامل مدعواً إلى إحدى الحفلات المقامة في قصر الامبراطور اسكندر الثاني ، وبينما كان جالساً بجانب القيصر اسكندر الثاني على المائدة التفت إليه القيصر ، وأظهر له عظيم الاحترام والتقدير وقال له :

« إنني تخور جداً أن أرى في مثل هذا اليوم السعيد رجلاً عظيماً مثلكم في ضيافتى » .

فلم يترك شامل هذه التحية تمر بسلام ، فالتفت إلى القيصر وأجاب بهدوء :

« لو أن شخصكم الكريم كان في أمري وضيافتي لكان سروري أعظم ، وافتخاري بذلك أجل ! » .

رحم الله شاملاً وبرد تراه ، فقد عاش كريماً يناضل في سبيل دينه ووطنه أكثر من ثلاثين عاماً ، حتى إذا اضطر إلى القاء السلاح والاستسلام إلى عدوه لم تفارقه روح الرجل المسلم المناضل الحر ، ولو كان جايسه امبراطور روسيا القيصر اسكندر الثاني .

برهانه الربيع الداغستاني

هذه نصيحة من الفقير ، فن لم يقبلها ولم يعبأ بها ، وسمى بمخالفتها . فإن أصابه منا تمزير بليغ — ولا شك أنه يصل إن شاء الله تعالى بعونه وقوته إما بالقتل أو ما هو أيسر منه — فلا يلومن إلا نفسه ، والباقي يخبركم الحامل بأوضح بيان ، بالشفافة واللسان . والسلام .

— ٣ —

من أمير المؤمنين شوبل إلى خادم الكفار — وعارب القهار ، وخبيل الشيطان الغرار « أغلار »^(١) .

سلام على من اتبع الهدى ، ونهى النفس عن موادات العدى . أما بعد .

فإن هذا النصراني قد اختار دين الإسلام ، من خدمة عبدة الأوثان والأصنام ، وإن اخترتم العكس . هذا .

— ٤ —

من أمير المؤمنين شوبل إلى أخيه النائب أبي بكر . سلام كثير . فالتى يقوله هؤلاء الحاملون من أخذ مزارع البنات المتروجة إلى الأخرى مما لا يقبله العقل والنقل ، فاحذر منه ، فالسلام .

يوم السبت ٣ من جمادى الأولى سنة ١٢٧١ هـ

هذا هو نص الرسائل التي عثرت عليها وهي — كما رأى القارىء — رسائل عربية الأهاب واضحة الأسلوب مع مراعاة أنها كتبت قبل نحو مائة سنة ، وأن كاتبها رجل لم يتأدر بلاده إلى بلاد عربية فضلاً عن أنه كان مدى ثلاثين سنة متواصلة في حرب مستمرة مع عدو قوى جبار .

والرسائل الثلاث الأولى كتبت في إبان الثورة وفي شئون متصلة بها أشد اتصال . والرسالة الرابعة كتبت رداً على استفتاء في شأن من شئون الحياة . وتمتاز عن بقية الرسائل بأنها مذبلة بتاريخ وهو يوم السبت الثالث من جمادى الأولى سنة إحدى وسبعين ومائتين وألف من الهجرة . أى قبل استسلام شامل بنحو

(١) إغلارخان من أعوان الروس الخارجين على شامل . والرسالة ناسبة فيها بعض غموض